

## تفسير سورة الجن

وهي مكية

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُ تَمَلَّكَ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَنْجِيهَةً وَلَا وِلْدَانًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُ كَانَ يَاقُولُ سَفِيهَتًا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَا ظَنَنَّا أَن لَّن نَقُولَ الْإِنسَ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ ﴾

ربع

يقول تعالى أمرا رسولهم ﷺ أن يخبر قومه : أن الجن استمعوا القرآن فآمنوا به وصدقوه وانقادوا له ، فقال تعالى : ﴿ قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ ﴾ أى : إلى السداد والنجاة ، ﴿ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴾ . وهذا المقام شبيه بقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ ﴾ [الاحقاف: ٢٩] . وقد قدمنا الاحاديث الواردة فى ذلك بما أغنى عن إعادتها هاهنا .

وقوله : ﴿ وَأَنَّهُ تَمَلَّكَ جَدُّ رَبِّنَا ﴾ : قال ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ جَدُّ رَبِّنَا ﴾ أى : فعله وأمره وقدرته . وقال: جد الله : آلاؤه وقدرته ونعمته على خلقه . وروى عن مجاهد وعكرمة : جلال ربنا . وقال قتادة : تعالى جلاله وعظمته وأمره . وقال السدى : تعالى أمر ربنا . وعن أبى الدرداء ، ومجاهد أيضا وابن جريج: تعالى ذكره . وقال سعيد بن جبير : ﴿ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا ﴾ أى : تعالى ربنا .

وقوله : ﴿ مَا اتَّخَذَ صَانِحَةً وَلَا وِلْدَانًا ﴾ أى : تعالى عن اتخاذ الصاحبة والاولاد ، أى : قالت الجن : تزهر الرب جل جلاله ، حين أسلموا وآمنوا بالقرآن ، عن اتخاذ الصاحبة والولد .

ثم قالوا : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهَتًا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴾ قال مجاهد ، وعكرمة ، وقاتدة ، والسدى : ﴿ سَفِيهَتًا ﴾ يعنون : إبليس ، ﴿ شَطَطًا ﴾ قال أبو مالك : أى : جورا . وقال ابن زيد : ظلما كبيرا . ويحتمل أن يكون المراد بقولهم : ﴿ سَفِيهَتًا ﴾ : اسم جنس لكل من زعم أن لله صاحبة أو ولدا . ولهذا قالوا : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهَتًا ﴾ أى : قبل إسلامه ﴿ عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴾ أى : باطلا وزورا ، ولهذا قالوا : ﴿ وَأَنَا ظَنَنَّا أَن لَّن نَقُولَ الْإِنسَ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ أى : ما حسبنا أن الإنس والجن يتمالؤون على الكذب على الله فى نسبة الصاحبة والولد إليه . فلما سمعنا هذا القرآن وآمنا به ، علمنا أنهم كانوا يكذبون على الله فى ذلك .

وقوله : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ أى : كنا نرى أن لنا فضلا على الإنس ؛ لأنهم كانوا يعوذون بنا ، أى : إذا نزلوا واديا أو مكانا موحشا من البرارى وغيرها كما كان عادة العرب فى جاهليتها ، يعوذون بعظيم ذلك المكان من الجان ، أن يصيبهم بشيء يسوؤهم كما كان أحدهم يدخل بلاد أعدائه فى جوار رجل كبير وذمامه وخفارته ، فلما رأت الجن أن الإنس يعوذون

بهم من خوفهم منهم ﴿ زَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ أى : خوفا وإرهابا وذعرا، حتى بقوا أشد منهم مخافة. وأكثر تعودا بهم، كما قال قتادة: ﴿ فزادوهم رهقا ﴾ أى : إثما ، وازدادت الجن عليهم بذلك جراءة. وقال السدى : كان الرجل يخرج بأهله فيأتى الأرض فينزلها فيقول : أعوذ بسيد هذا الوادى من الجن أن أضرا أنا فيه أو مالى أو لى أو ماشيتى ، قال : فإذا عاذ بهم من دون الله ، رَهَقْتَهُمُ الجن الأذى عند ذلك .

وقال أبو العالية ، والربيع ، وزيد بن أسلم : ﴿ رَهَقًا ﴾ أى : خوفا. وقال ابن عباس : ﴿ فزادوهم رَهَقًا ﴾ أى : إثما . وكذا قال قتادة . وقال مجاهد : زاد الكفار طغيانا .

وروى ابن أبى حاتم عن كردم بن أبى السائب الأنصارى قال : خرجت مع أبى من المدينة فى حاجة ، وذلك أول ما ذكر رسول الله ﷺ بمكة ، فأوانا المبيت إلى راعى غنم . فلما انتصف الليل جاء ذئب فاخذ حَمَلًا من الغنم ، فوثب الراعى فقال : يا عامر الوادى ، جارك . فتأدى مناد لا نراه ، يقول : يا سِرْحَان ، أرسله . فأتى الحمل يشتد حتى دخل فى الغنم لم تصبه كدمة . وأنزل الله تعالى على رسوله بمكة : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ . ثم قال : ورؤى عن عبيد بن عمير ، ومجاهد ، وأبى العالية ، والحسن ، وسعيد بن جبير ، وإبراهيم النخعى ، نحوه . وقد يكون هذا الذئب الذى أخذ الحمل - وهو ولد الشاة - كان جنيا حتى يهرب الإنسى ويخاف منه ، ثم رده عليه لما استجار به ، ليضله ويهينه ، ويخرجه عن دينه ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ﴾ أى : لن يبعث الله بعد هذه المدة رسولا . قاله الكلبي ، وابن جرير .

﴿ وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَأَتْ حَرَمًا شَدِيدًا وَشَهَابًا ﴾ ﴿ وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعَدًا لِّلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ﴾ ﴿ وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشْرٌ أُرِيدُ بَعْنَ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشْدًا ﴾

يخبر تعالى عن الجن حين بعث الله رسوله محمدا ﷺ وأنزل عليه القرآن ، وكان من حفظه له ان السماء ملئت حرما شديدا ، وحفظت من سائر أرجائها ، وطردت الشياطين عن مقاعدها التى كانت تقعد فيها قبل ذلك ؛ لثلا يسترقوا شيئا من القرآن . فيلقوه على السنة الكهنة ، فيلبس الأمر ويختلط ولا يدري من الصادق . وهذا من لطف الله بخلقه ، ورحمته بعباده ، وحفظه لكتابه العزيز، ولهذا قالت الجن : ﴿ وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَأَتْ حَرَمًا شَدِيدًا وَشَهَابًا . وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِّلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ﴾ أى : من يروم أن يسترق السمع اليوم يجد له شهابا مرصدا له ، لا يتخطاه ولا يتعداه ، بل يمحقه ويهلكه ، ﴿ وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشْرٌ أُرِيدُ بَعْنَ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشْدًا ﴾ أى : ما ندري هذا الأمر الذى قد حدث فى السماء ، لا ندري أشر أريد بمن فى الأرض ، أم أراد بهم ربهم رشدا ؟ وهذا من أدبهم فى العبارة حيث أسندوا الشر إلى غير فاعل ، والخير أضافوه إلى الله عز وجل . وقد ورد فى الصحيح : « والشر ليس إليك » . وقد كانت الكواكب يرمى بها قبل ذلك ، ولكن ليس بكثير بل فى الاحيان بعد الاحيان ، كما فى حديث ابن عباس : بينما نحن جلوس مع رسول الله ﷺ إذا رمى بنجم فاستنار ، فقال : « ما كنتم تقولون فى هذا ؟ » قلنا : كنا نقول : يولد عظيم ، يموت عظيم . فقال : « ليس كذلك ، ولكن الله إذا قضى الأمر فى السماء » ، وذكر تمام

الحديث، وقد أوردناه في سورة «سبا» بتمامه (١).

وهذا هو السبب الذي حملهم على تطلب السبب في ذلك ، فأخذوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها، فوجدوا رسول الله ﷺ يقرأ بأصحابه في الصلاة ، فعرفوا أن هذا هو الذي حُفِظت من أجله السماء، فأمن من آمن منهم ، وجمرد في طغيانه من بقي ، كما تقدم حديث ابن عباس في ذلك ، عند قوله في سورة «الأحقاف» : ﴿وَإِذْ صَرَّفْنَا إِلَيْكَ نَفْرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾ الآية [الأحقاف: ٢٩] . ولا شك أنه لما حدث هذا الأمر ، وهو كثرة الشهب في السماء والرسم بها ، هال ذلك الإنس والجن وانزعجوا له وارتاعوا لذلك ، وظنوا أن ذلك لخراب العالم ، كما قال السدي: لم تكن السماء تحمرس إلا أن يكون في الأرض نبي أو دين لله ظاهر ، وكانت الشياطين قبل محمد ﷺ قد اتخذت المقاعد في السماء الدنيا ، يستمعون ما يحدث في السماء من أمر . فلما بعث الله محمداً نبياً ، رُجموا ليلة من الليالي ، ففزع لذلك أهل الطائف ، فقالوا : هلك أهل السماء ، لما رأوا من شدة النار في السماء واختلاف الشهب . فجعلوا يعتقدون أرقاءهم ويُسَيِّون مواشيهم ، فقال لهم عبد ياليل بن عمرو بن عمير : ويحكم يا معشر أهل الطائف . أمسكوا عن أموالكم ، وانظروا إلى معالم النجوم ، فإن رأيتموها مستقرة في أمكنتها فلم يهلك أهل السماء ، إنما هذا من أجل ابن أبي كبشة - يعني : محمداً ﷺ - وإن أنتم لم تروها فقد هلك أهل السماء . فنظروا فراوها ، فكفوا عن أموالهم . وفزعت الشياطين في تلك الليلة ، فأتوا إبليس فحدثوه بالذي كان من أمرهم ، فقال : اتنوني من كل أرض بقبضة من تراب اسمها . فاتوه فَنَسَمَ فقال : صاحبكم بمكة . فبعث سبعة نفر من جن نصيبين ، فقدموا مكة فوجدوا رسول الله ﷺ قائماً يصلي في المسجد الحرام يقرأ القرآن ، فدنوا منه حرصاً على القرآن حتى كادت كلالهم تصيبه ، ثم أسلموا . فانزل الله تعالى امرهم على نبيه ﷺ .

﴿ وَأَنَا مِنَ الصَّالِحِينَ وَمِنَ دُونِ ذَلِكَ كُنَّا طَرِيقًا قَدِيدًا ﴾ وَأَنَا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُنَجِّزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا ﴿ وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ ءَأَمْنَا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴾ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَمِنَ الْقَنِيطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴿ وَأَمَّا الْقَنِيطُونَ فَكَاثُوا لِيَحْتَمَّ حَطْبًا ﴿ وَأَلُوْا أَسْتَقَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْتَفْتِيَهُمْ مَّاءً غَدَقًا ﴿ لَيَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿

يقول تعالى مخبراً عن الجن : إنهم قالوا مخبرين عن أنفسهم : ﴿ وَأَنَا مِنَ الصَّالِحِينَ وَمِنَ دُونِ ذَلِكَ ﴾ أي : غير ذلك ، ﴿ كُنَّا طَرِيقًا قَدِيدًا ﴾ أي : طرائق متعددة مختلفة وآراء متفرقة . قال ابن عباس ، ومجاهد ، وغير واحد : ﴿ كُنَّا طَرِيقًا قَدِيدًا ﴾ أي : منا المؤمن ، ومنا الكافر . وقوله : ﴿ وَأَنَا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا ﴾ أي : نعلم أن قدرة الله حاكمة علينا ، وأنا لا نعجزه في الأرض ، ولو أمعنا في الهرب ، فإنه علينا قادر ، لا يعجزه أحد منا . ﴿ وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ ءَأَمْنَا بِهِ ﴾ : يفتخرون بذلك ، وهو مفخر لهم ، وشرف رفيع ، وصفة حسنة .

وقولهم : ﴿ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴾ قال ابن عباس ، وقتادة ، وغيرهما : فلا يخاف

أن يُقص من حسناته أو يحمل عليه غير سيئاته ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَإِن يَخَافُ ظَلَمًا وَلَا هَضْمًا ﴾ [طه: ١١٢] . ﴿ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَمِنَ الْقَاسِمِينَ ﴾ أى : منا المسلم ومنا القاسم ، وهو : الجائر عن الحق التائب عنه ، بخلاف المقسط فإنه العادل ، ﴿ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأَوْلَتْكَ تَحْرُورًا رَشَدًا ﴾ أى : طلبوا لأنفسهم النجاة ، ﴿ وَأَنَا الْقَاسِمُونَ فَكَانُوا لِبَهْتَمٍ حَطْبًا ﴾ أى : وقدوا تُسمر بهم .

وقوله : ﴿ وَأَنْ لَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا . لِنَفْتِهِمْ فِيهِ ﴾ اختلف المفسرون فى معنى هذا على قولين :

أحدهما : وأن لو استقام القاسطون على طريقة الإسلام وعدلوا إليها واستمروا عليها ، ﴿ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا ﴾ أى : كثيراً . والمراد بذلك سعة الرزق ، كقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَرْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ [المائدة: ٦٦] ، وكقوله : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ [الاعراف: ٩٦] . وعلى هذا يكون معنى قوله : ﴿ لِنَفْتِهِمْ فِيهِ ﴾ أى : لنختبرهم ، كما قال مالك ، عن زيد بن أسلم : ﴿ لِنَفْتِهِمْ ﴾ : لتبليهم ، من يستمر على الهداية عن يرد إلى الغواية ؟ .

ذكر من قال بهذا القول : قال ابن عباس : ﴿ وَأَنْ لَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ ﴾ يعنى بالاستقامة : الطاعة . وقال مجاهد : ﴿ وَأَنْ لَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ ﴾ قال : الإسلام . وكذا قال سعيد بن جبير ، وسعيد بن المسيب ، وعطاء ، والسدى ، ومحمد بن كعب القرظى . وقال قتادة : ﴿ وَأَنْ لَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ ﴾ يقول : لو آمنوا كلهم لاوسعنا عليهم من الدنيا . وقال مجاهد : ﴿ وَأَنْ لَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ ﴾ أى : طريقة الحق . وكذا قال الضحاك ، واستشهد على ذلك بالآيتين اللتين ذكرناهما ، وكل هؤلاء أو أكثرهم قالوا فى قوله : ﴿ لِنَفْتِهِمْ فِيهِ ﴾ أى : لتبليهم به .

والقول الثانى : ﴿ وَأَنْ لَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ ﴾ الضلالة ﴿ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا ﴾ أى : لاوسعنا عليهم فى الرزق استدراجا ، كما قال : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴾ [الانعام: ٤٤] ، وكقوله : ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنٍ . نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦] ، وهذا قول أبى مجلز لاحق بن حميد؛ فإنه قال فى قوله : ﴿ وَأَنْ لَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ ﴾ أى : طريقة الضلالة . وحكاها البغوى عن الربيع بن أنس ، وزيد بن أسلم ، والكلبى ، وابن كيسان . وله اتجاه ، ويتأيد بقوله : ﴿ لِنَفْتِهِمْ فِيهِ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَمَنْ يَعْزُضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴾ أى : عذابا شاقا شديدا موجعا مؤلما . قال ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وقتادة ، وابن زيد : ﴿ عَذَابًا صَعَدًا ﴾ أى : مشقة لا راحة معها .

﴿ وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ ﴿ وَأَنَّ لِمَا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴾ ﴿ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ صَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴾ ﴿ قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيبَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴾ ﴿ إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتٍ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا ﴾ ﴿ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَيَسْجَعُونَ مَنْ أَسْجَعُ نَاصِرًا وَاقْلِبْ عَدَدًا ﴾

يقول تعالى آمراً عباده أن يُوحّدوه في مجال عبادته ، ولا يُدعى معه أحد ولا يشرك به ، كما قال قتادة في قوله : ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ قال : كانت اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم وبيعتهم ، أشركوا بالله ، فأمر الله نبيه ﷺ أن يوحدوه وحده . وعن ابن عباس في قوله : ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ قال : لم يكن يوم نزلت هذه الآية في الأرض مسجد إلا المسجد الحرام ، ومسجد إيليا : بيت المقدس . وقال الأعمش : قالت الجن : يا رسول الله ، ائذن لنا نشهد معك الصلوات في مسجدك . فانزل الله : ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ يقول : صلوا ، لا تخالطوا الناس . وقال عكرمة : نزلت في المساجد كلها . وقال سعيد بن جبير . نزلت في أعضاء السجود ، أى : هي لله فلا تسجدوا بها لغيره . وذكروا عند هذا القول الحديث الصحيح عن ابن عباس ، قال : قال رسول الله ﷺ : « أمرت أن أسجد على سبعة أعظم : على الجبهة - وأشار بيديه إلى أنفه - واليدين والركبتين وأطراف القدمين » (١)

وقوله : ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ قال ابن عباس : يقول : لما سمعوا النبي ﷺ يتلو القرآن كادوا يركبونه ؛ من الحرص ، لما سمعوه يتلو القرآن ، ودنوا منه فلم يعلم بهم حتى أتاه الرسول فجعل يقرئه : ﴿ قُلْ أَوْحَىٰ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ ﴾ ، يستمعون القرآن . هذا قول ، وهو مروى عن الزبير بن العوام . وعن ابن عباس قال : قال الجن لقومهم : ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ ، قال : لما راوه يصلى وأصحابه ، يركعون بركوعه ويسجدون بسجوده ، قالوا : عجبوا من طواعية أصحابه له ، قال : فقالوا لقومهم : ﴿ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ . وهذا قول ثان ، وهو مروى عن سعيد بن جبير أيضا . وقال الحسن : لما قام رسول الله ﷺ يقول : « لا إله إلا الله » ، ويدعو الناس إلى ربهم ، كادت العرب تلبّد عليه جميعاً . وقال قتادة في قوله : ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ قال : تلبّدت الإنس والجن على هذا الأمر ليظفثوه ، فأبى الله إلا أن ينصره ويضمّيه ويظهره على من ناواه . وهذا قول ثالث ، وهو مروى عن ابن عباس ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، وقول ابن زيد ، واختيار ابن جرير ، وهو الأظهر لقوله بعده : ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴾ أى : قال لهم الرسول لما أدّوه وخالفوه وكذبوه وتظاهروا عليه ، ليظفثوا ما جاء به من الحق واجتمعوا على عداوته : ﴿ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي ﴾ أى : إنما أعبد ربى وحده لا شريك له ، واستجير به واتوكل عليه ، ﴿ وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴾ .

وقوله : ﴿ قُلْ إِنِّي لَا أملكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴾ أى : إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىّ ، وعبد من عباد الله ليس إلىّ من الأمر شيء في هدايتكم ولا غوايتكم ، بل المرجح في ذلك كله إلى الله عز وجل . ثم أخبر عن نفسه أيضا أنه لا يجيره من الله أحد ، أى : لو عصيته فإنه لا يقدر أحد على إنقاذى من عذابه ، ﴿ وَلَنْ أجدَ مِنْ دُونِهِ مَلْتَحِدًا ﴾ قال مجاهد ، وقاتادة ، والسدى : لا ملجأ . وقال قتادة أيضا : أى : لا نصير ولا ملجأ . وفي رواية : لا ولى ولا موئل . وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتٍ ﴾ قال بعضهم : هو مستثنى من قوله : ﴿ لَا أملكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴾ ، ﴿ إِلَّا بَلَاغًا ﴾ ، ويحتمل أن يكون استثناء من قوله : ﴿ لَنْ يَجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ ﴾ أى : لا يجيرنى منه ويخلصنى إلا إبلاخى الرسالة التى أوجب أداءها

(١) البخارى (٨١٢) ومسلم (٤٩٠ / ٢٣٠) .

(٢) قال : هي قراءة الجمهور ، وكذا قراءة الحافظ ابن كثير .

على ، كما قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ [المائدة: ٦٧] .

وقوله : ﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا ﴾ أى : إنما ابليكم رسالة الله ، فمن يعص بعد ذلك فله جزاء على ذلك نار جهنم خالدين فيها أبداً ، لا محيد لهم عنها ، ولا خروج لهم منها .  
وقوله : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَقُولُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴾ أى : حتى إذا رأى هؤلاء المشركون من الجن والإنس ما يوعدون يوم القيامة فسيعلمون يومئذ من أضعف ناصرًا وأقل عدداً ، هم أم المؤمنون الموحدون لله عز وجل ، أى : بل المشركون لا ناصر لهم بالكليّة ، وهم أقل عدداً من جنود الله عز وجل .

﴿ قُلْ إِنْ أَدْرِيَتْ أَقْرَبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لِمُ رَبِّيَ أَمَدًا ﴾ عَلِيمٌ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿١﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢﴾ لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولًا رَزِيهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٣﴾

يقول تعالى أمرأ رسوله ﷺ أن يقول للناس : إنه لا علم له بوقت الساعة ، ولا يدري اقريب وقتها أم بعيد ؟ ﴿ قُلْ إِنْ أَدْرِيَتْ أَقْرَبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لِمُ رَبِّيَ أَمَدًا ﴾ ؟ أى : مدة طويلة . وقد كان ﷺ يُسأل عن وقت الساعة فلا يجيب عنها ، ولما تبدى له جبريل فى صورة أعرابى كان فيما سأله أن قال : يا محمد ، فاخبرنى عن الساعة ؟ قال : « ما المسؤول عنها بأعلم من السائل » (١) . ولما ناداه ذلك الأعرابى بصوت جهورى فقال : يا محمد ، متى الساعة ؟ قال : « ويحك . إنها كائنة ، فما أعددت لها ؟ » . قال : أما إنى لم أعد لها كثير صلاة ولا صيام ، ولكنى أحب الله ورسوله . قال : « فأنت مع من أحببت » . قال انس : فمأ فرح المسلمون بشىء فرحهم بهذا الحديث (٢) .

وقوله : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا . إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ ﴾ ، هذه كقوله تعالى : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴾ [البقرة: ٢٥٥] . وهكذا قال هاهنا : إنه يعلم الغيب والشهادة ، وإنه لا يطلع أحد من خلقه على شىء من علمه إلا بما أطلعه تعالى عليه ؛ ولهذا قال : ﴿ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا . إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ ﴾ ، وهذا يعم الرسول الملكى والبشرى .

ثم قال : ﴿ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴾ أى : يَحْتَصِمُهُ بِمَزِيدٍ مَعْقِبَاتٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ، ويساقونته على ما معه من وحى الله ؛ ولهذا قال : ﴿ لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولًا رَزِيهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴾ . وقد اختلف المفسرون فى الضمير الذى فى قوله : ﴿ لِيَعْلَمَ ﴾ ، إلى من يعود ؟ فقيل : إنه عائد على النبي ﷺ . عن سعيد بن جبیر فى قوله : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا . إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴾ قال : أربعة حفظة من الملائكة مع جبیريل ، ﴿ لِيَعْلَمَ ﴾ محمد ﷺ ﴿ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولًا رَزِيهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴾ . وقال قتادة : ﴿ لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولًا رَزِيهِمْ ﴾ ، قال : ليعلم نبى الله أن الرسل قد بلغت عن الله ،

(١) جزء من حديث طويل . انظر مسلم (١/٨) عن عمر بن الخطاب .

(٢) مسلم (١٦٣/٢٦٣٩) .

وأن الملائكة حفظتها ودفعت عنها . واختاره ابن جرير . ويحتمل أن يكون الضمير عائداً إلى الله عز وجل ، وهو قول حكاة ابن الجوزى فى « راد المسير » . ويكون المعنى فى ذلك : أنه يحفظ رسله بملائكته ليتمكنوا من أداء رسالاته ، ويحفظ ما بين إليهم من الوحي ؛ ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم ، ويكون ذلك كقوله : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ ﴾ [البقرة: ١٤٣] ، وكقوله : ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴾ [التكوير: ١١] ، إلى أمثال ذلك ، مع العلم بأنه تعالى يعلم الأشياء قبل كونها قطعاً لا محالة ؛ ولهذا قال بعد هذا : ﴿ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴾ .